الرواية يجب أن تلفت العقل لا النظر

محمد صالح البحر: التأمل روح المبدع الذي يطوع له الخيال طينته

انتشار الجوائز المخصصة للرواية شجع الكثيرين على كتابتها من مبتدئين إلى شعراء وصحافيين ونقاد وحتى مولعين بفن الرواية، هذا ما خلق سيلا كبيرا من كتاب الرواية ما يتطلب الوقوف بجدية نقدية صارمة للتمييز من بين ما يكتب. "العرب" كان لها هذا الحوار مع الكاتب والروائي المصري محمد صالح البحر في إطلالة على عالم الرواية وكيف يجب أن يكون.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

الروايات عوالم موازية (لوحة للفنانة تحيه عليم)

تتجلى في تجربة الروائي والقاص المصري محمد صالح البحر الروح والجسد والعمق والبساطة والغموض والوضوح والرقة والتوحش في عوالم الحياة في صعيد مصر، هذه العوالم التي تشكلت عبر الحضارة المصرية القديمة التي لا تزال تلقي بظلالها على البيئة والمجتمع والحياة.

من عوالم الصعيد ينحت الكاتب عالما ثريا من واقع حيوات وشخصيات ورؤى وأفكار يصعب كشف أسرارها إلا لمن يعيش داخلها، لذلك حرص صالح البحر على عدم مغادرة الصعيد على الرغم من أن كثيرين قبله وبعده هاجروا إلى العاصمة، لكنه ظل وفيا لمكانه، فأبدع ليحقق مكانة متميزة داخل المشهد الروائي المصري.

وقدم سبعة أعمال سردية، في الرواية "حقيبة الرسول"، "موت وردة"، "2/1 مسافة"، "حتى يجد الأسود من يحبه"، وفي القصة القصيرة "قسوة الآلهة"، "أزمنة الآخرين"، "ثلاث خطوات باتجاه السماء"، وله أكثر من عمل قيد النشر.

الرواية والعقل

يقول صالح البحر "بدأت الكتابة هاويا، وسأنتهي هاويا أيضا، فالهواية هي الشيء الوحيد الذي يمارسه الإنسان بحب، ويضحي بكل شيء من أجله، ولا يمل من ممارسته على طول حياته كلها، الهواية هي شغف الإنسان الدائم، وطريقه الوحيدة للمتعة الحقيقية، ليست متعة تزجية الوقت أو الحواس فحسب، بل متعة الكشف المستمر للذات وللعالم الذي يحيا فيه، متعة المعرفة التي بلا حدود".

> التشويق مهم لقراءة الرواية، لكنه الآن صار تشويقا للعقل لا تشويقا للحواس وإثارة للفكر لا إثارة للمشاعر

ويتابع "لا أحد يستطيع أن يحدد على وجه الدقة، متى بدأتْ مسيرته مع الكتابة؟ إنها مثل زخات المطر التي تأتي هادئة، ثم تبدأ في ممارسة الصخب الذي لا يفتر من بعد، هكذا تبدو حكايات الأمهات والجدات - عن حمار الليل، وأُمِّنا الغولة، وأبورجل مسلوخة، وغيرها من حكايات الصعيد الممتدة في الزمن - كأول الغيث الذي لم أشعر به، رغم أنه هو الذي أثار المخيلة، ونبهها إلى أهمية الحكاية في الحياة، ثم جاءت القراءة لتضع قدميّ على حافة البئر الممتلئة بسحر الحكايات وكنوزها التي لا تنضب، كان كل لغز وكل كتاب مثل شيطان لا يكف عن الوسوسة، نداهة لا تكف عن الغواية، وكل ذلك علمني كيف أرصد ما يدور من حولي بعين ثاقبة".

ويواصل قوله "بدا المكان في الصعيد متخما بالكنوز التي تنتظر الكشف، وعندما بدأتُ الإمساك بالقلم بدأ السقوط في البئر، أذكر أن أول قصة حقيقية كتبتها كانت من خلال هذا الرصد، عن بنت الجيران التي فاتها قطار الزواج، وشكلت الدورة الشهرية كابوسا نفسيا لها، كان يصل إلى حد الصراخ والإغماء، وجلب المشايخ للتلاوة وتهدئة الروح، وها أنا ذا لا أزال أغوص في أعماق البئر التي لا تنتهي، بحثا عن عمقها الذي لا يبين، ويبدو أنه غير موجود من الأساس، لا أعرف ما الذي يربطني بالمكان هنا على وجه التحديد، لكنني أؤمن بقدرة الحكايات الهائلة على خطف الروح، وتلبسها كجنّي عاشق، تتحدث باسمه وتنطلق نحو غاياته".

ويلفت صالح البحر إلى أن لديه سبعة أعمال سردية مطبوعة، وعملين بانتظار الطباعة، ورواية لا يزال يعمل عليها، "عشرة أعمال خلال ثلاثين عاما من فعل الكتابة الاحترافية، والمقترنة بالاحتكاك المباشر بالفعل الثقافي في مصر والعالم العربي، يبدو الأمر للبعض وكأنني مقل جدا في عملية الكتابة، وأنا لا أكف عن الدهشة من اعتقادهم هذا، فأنا أكتب كل يوم تقريبا، وأفكر في الكتابة كل لحظة، لكنني أؤمن أن الرضا هو المستحيل الذي أتطلع إليه، إنهم لا يعلمون أن كل كتاب صدر لي حتى الآن، هو لحظة يأس من معانقة المستحيل الذي أرجوه، لحظة ضعف إنساني يخشى معانقة ملاك الموت له، قبل أن يشعر أحد ما بمروره على جسد الحياة".

ويضيف "لا أعرف إن كنت ستصدقني أم لا، لكن الرواية ليست عملا مغلقا على شخصياته وأحداثه، بل عملا مفتوحا على وجود أكبر وسابق لوجودها، لكل رواية زمنها المفتوح، ليس زمن أحداثها ولا كتابتها ولا قراءتها، بل زمن وجودها، الزمن الذي استمدتْ منه كل شيء فيها، ويشكل الخلفية الوجودية السابقة لها، والتي مهدتْ لوجودها، هذا الزمن الذي لا يشعر به أحد، لا القارئ ولا الكاتب حتى، ومع ذلك لا يمكن تخيل شخصيات أو أحداث الرواية دونه".

ويوضح الكاتب أننا لا ننتبه أن كل شخصية في كل رواية قد وُلِدت قبل أن تُكتب، بمعنى أن لها امتدادها السابق عن الرواية، امتداد وجودها في الحياة، والذي لم يهتم به الكاتب لأنه أراد أن يمسك بها في لحظة يريدها هو، لتشكل سياقا ينشده هو، ولأن هذه الشخصيات هي المادة الأولى للحياة، المادة الخام القابلة دوما للتشكل، والدخول في أحداث وحيوات جديدة، فإنها تستجيب له، وتخضع لمصيره، لكن ثمة حياة أبدية - جبارة ولا تنتهي - تكمن في مكان ما، وكل ما نفعله كروائيين أننا ننال من معينها الدائم.

ويتساءل صالح البحر "هل سأل أحدنا من قبل، كيف وصل السيد أحمد عبدالجواد إلى هذه الحياة المتناقضة بين اللهو والشدَّة، والتي ألبسه إياها، أو مسكه عليها، نجيب محفوظ؟" ويقول "لهذا أحاول دائما أن أمسك بشخصياتي في حياتهم الأبدية هذه، ليتناسبوا مع المصير الذي أريده لهم، ولا أكتفي بأن أجلبهم منها فقط، وهو ما حدث لآدم مثلا في رواية 'موت وردة'، فقد جاء من الأبد، من نقطة البداية التي شكلتْ جذور الصراع على الأرض، وقريبا من الفكرة الأم التي شكلتْ رواية الحياة كلها في الأعلى، قبل أن تهبط إلى الأرض".

ويواصل إثارة التساؤل "ربما لم يطرح أحد على نفسه هذا السؤال من قبل، أيهما أسبق عن الآخر، الحياة أم الرواية؟ لكنه السؤال الذي لا يكف عن صب الطنين في داخلي المتوجس بطبيعته، التأمل روح المبدع الذي يطوع له الخيال، طينته اللدنة التي تتوق للتشكل بين يديه، وتنتظر بلهفة العاشق نفخته التي تهبها الحياة، الحياة لم تبدأ على الأرض، الحياة بدأتْ هناك في الأعلى، بدأت بفكرة، أعقبها حوار، ثم شخصيات، ثم أحداث تتصارع فيها تلك الشخصيات، بدأت في السماء، ثم شكلت الأرض جزأها الثاني الذي لم ينته بعد".

ويتابع "ألسنا هنا أمام سياق روائي بامتياز، إذا آمنا بأن الرواية قصة سردية طويلة، لا يحدها المكان ولا الزمن ولا الأحداث ولا الشخصيات، وتقوم على تقديم رؤية متكاملة للذات وللمجتمع وللعالم الذي توجد فيه، ألسنا هنا أمام سياق يخبرنا بأن الوجود الروائي سابق لوجود الحياة على الأرض، أو لعلنا مجرد شخصيات في خضم الأمواج الهائلة للرواية الكبرى التي تشمل كل شيء، نحن وما نحيا فيه وما نكتبه، غير أن السؤال الذي سيطل برأسه، ما الذي تشكله أهمية هذا السبق برأسه؟ ولعل الإجابة تكمن في أن كل رواية نكتبها هي وجود صغير يحاول أن يستقل بنفسه عن الوجود الأكبر، كلما نبتت فيه فكرة جديدة، هكذا تصير الرواية سياقا معرفيا لا يشبع، مولودا آخر لا يمل بدء الحياة من جديد كلما أوشكت حياة آبائه على النهاية، ولم تكتمل معرفتهم بعد، الرواية إذن تواصل معرفي في سياق لن ينتهي إلا بانتهاء الحياة على الأرض، والتي هي مجرد تفاصيل لأحداث الرواية الكبرى التي بدأت قبلها بكثير".

ويؤكد "لذلك يجب أن تكون الرواية ملفتة للعقل، لا النظر، فالتشويق مهم لقراءة الرواية، لكنه الآن صار تشويقا للعقل، لا تشويقا للحواس، وإثارة للفكر لا إثارة للمشاعر الغريزية، لذلك يجب أن تقوم الرواية على حالة معرفية تضيف إلى العقل، وتثيره باتجاه التفكير في شيء لم يكن يفكر فيه من قبل، ولذلك أيضا يجب أن يكون الروائي بديلا حقيقيا عن الفيلسوف، في عالم صار الآن بلا فلسفة حاكمة".

ويشير صالح البحر إلى أن "الرواية في أصل عمقها حالة مناجاة تدور بين الروائي وذاته، تحت قسوة ظروف محددة وخاصة، ومن خلال صراع المناجاة تحدث حالة الكشف التي يرى الروائي من خلالها مصيره في هذا الوجود الضاغط، في ظل هذا التعريف الخاص يمكن تحديد علاقة الرواية بكل الأشياء، السياسة والمجتمع والذات والوجود والعالم، ويمكن للرواية أن تصير ذاتية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية، أو غير ذلك".

الرواية في رأيه، حالة كشف، تضيف بطريقة فنية معرفة جديدة للإنسان في الموضوع الذي تتناوله، من خلال التأمل والرصد وتشابك العلاقات والخلفية المعرفية المختزنة في وعي الروائي، لذلك فإن الرواية كما تكشف وتعري الذات، تكشف وتعري أيضا التوترات السياسية والاجتماعية والإنسانية في المجتمعات. هكذا يمكن اعتبار الرواية تلك النافذة التي نطل من خلالها لنرى كل شيء، أنفسنا، عيوبنا، تناقضاتنا، مجتمعاتنا، بيئتنا، صراعاتنا المحتدمة، وكل ما يخص وجودنا في الحياة، ونقدر بتفتيته وتحليله على الوصول إلى وجود أفضل في مستقبل قريب.

استسهال الكتابة

عن زحف الشعراء والنقاد باتجاه الرواية، يقول صالح البحر "إنه زحف التهافت لا القيمة، لهاث الذي يجري خلف غنيمة مرتقبة، يراها سهلة المنال، وليس عنت الذي يجري خلف ذاته ليدركها كي يعرف نفسه، ويحدد وجوده في الحياة، لو يعرف الناس حجم المعاناة التي يكابدها الروائي أثناء عملية الكتابة، لانصرفوا حتى عن قراءتها، كي لا يصيبهم وهج نيرانها".

محمد صالح البحر

> كل رواية نكتبها هي وجود صغير يحاول أن يستقل بنفسه

ويضيف "في ما سبق كان البعض يُقبل على كتابة الرواية من قبيل الوجاهة، وكان معظمهم أغنياء، أو كتابا كبارا في الصحافة والفكر والسياسة، مثل مصطفى محمود، أنيس منصور، رفعت السعيد، العقاد، مصطفى أمين، ورغم ذلك لم يكن المجتمع، ولا النقد الأدبي، يأخذهم على محمل الجد، أما الآن فقد خلقت وسائل التواصل الاجتماعي سيلا منهمرا من الكتابات، ظنَّ الكثيرون من خلالها أنهم يمتلكون القدرة على الكتابة، ثم جاءت الجوائز الكبرى للرواية لتزيد الطين بَلَّة".

يشير الكاتب إلى أن السيل أصبح طوفانا لا قبل لأحد به، والنتيجة النهائية أن الرواية العربية ماعتْ إلى درجة كبيرة، وتفرق دمها بين الاستسهال المخل لأناس لا يمتلكون الحد الأدنى من الفنية، أو البحث الذي يغلب فيه العقل الراصد، وجمع المعلومات، على الفن بقدرته الهائلة على الولوج إلى أعماق النفس الإنسانية، للتأثير فيها.

ويعتقد صالح البحر أن "ما أنجزه جيل التسعينات من إضافة، شكلتْ رؤية إبداعية مغايرة عن الأجيال السابقة، هو ما تدور في فلكه الرواية المصرية حتى الآن، إضافة إلى الخبرات الكبيرة التي تم اكتسابها من الرواية العالمية، بعدما اتسع نطاق ترجمتها منذ أوائل الألفية الثالثة، وكان من الممكن عبر كل تلك المكتسبات أن تصل الرواية المصرية إلى آفاق عالية وبعيدة المنال، لولا الاستسهال، وسيطرة آليات السوق بكل مفرداتها".

ويوضح "أما في ما يخص الوجود في دائرة الحراك الإبداعي للرواية، والتي تتسع بشكل كبير بفعل الجوائز، ووسائل التواصل الاجتماعي التي أتاحتْ قدرا هائلا من إمكانيات التعبير عن النفس، وتُراكم كل لحظة جبالا من الكلمات المكتوبة، فإنني أرى أن على كل مبدع أن يعي جيدا، أن الوجود في دائرة القوة دافع مهم للاستمرار وتطوير الذات، وأن الوجود الآمن - في رحاب القطيع المتشابه - وَهَنٌ يشبه الموت، ويؤدي إليه، وأخيرا عليه أن يؤمن أن أحدا مهما كان أو بلغ، لا يستطيع أن ينفي أحدا آخر مهما بذل من جهد، أو امتلك من أدوات، فكل وجود هو حقيقة مستقلة بذاتها، لا يقتلها الانكار، ولا يحجبها الظل".

«أسبوع الطفل» السعودي تنمية للمواهب الناشئة

الرياض – اُختتمت فعاليات "أسبوع الطفل" التي نظمتها هيئة الأدب والنشر والترجمة السعودية، في الخبر بالمنطقة الشرقية، والذي تحتفي الهيئة من خلاله بإبداع الطفل في مجالات الرواية والقصة والأدب، وذلك ضمن جهودها في تنمية الحراك الأدبي السعودي وإثرائه بالفعاليات والأنشطة التي تستهدف مختلف شرائح المجتمع.

وتضمّن فعاليات "أسبوع الطفل" مسارين رئيسين، تمثل الأول في ورش عمل للأطفال ولقاءات تحفيزية لأولياء الأمور، والمسار الثاني، مناقشة قصص وروايات مخصصة للأطفال مع خبراء في أدب الطفل، بهدف تنمية مهارات الطفل القرائية وقدراته العقلية.

ونُفّذت الفعاليات على مدار سبعة أيام، بحضور خمسين طفلاً في اليوم الواحد تحقيقاً للإجراءات الاحترازية، بمشاركة متخصصين في أدب الطفل، حيث سعت الهيئة إلى فتح قنوات التواصل بين المجتمع والأدباء بما يعود أثره على تنشئة الطفل وتوعيته بأهمية القراءة وقوتها.

واستهلت سندس الشريف اليوم الأول بالحديث حول موضوع "كيف تقرأين لطفلك؟" للتعريف بأهم استراتيجيات القراءة للطفل إلى حدود سن ثماني سنوات، ومعايير تأسيس المكتبة المنزلية، وتقديم أفكار إبداعية للقراءة، وآلية إثراء حصيلة الطفل اللغوية، تلتها مشاركة فاطمة الحاجي بعنوان "معاً داخل الحقيبة 1" وهي لعبة تعتمد على خيال الطفل، من خلال حوار شخصي مع كل طفل يُخْرج حقيبته المدرسية من داخل الصندوق ويصممها في خياله ويختار ألوانها ويقرر الكتب التي يضعها داخلها.

فيما شارك فايز منصور ببعض القصص التي تتماشى مع بيئة الطفل ومجتمعه، بغرض الاستفادة منها في تعاملاته الحياتية والسلوكية، ثم أتبعتها مشاركتان من المبدعين يوسف وعباس التاروتي من خلال قصتين جميلتين تتحدث الأولى عن الأخوة، فُتح المجال فيها للأطفال للمناقشة والتعبير، أما الثانية فتعتمد على مساعدة الطفل لوالديه.

وفي اليوم الثاني استكملت فاطمة الحاجي، مشاركتها "معاً داخل الحقيبة 2" لمناقشة أهم التحديات والصعوبات التي تواجه الأطفال في مجال القراءة داخل المنزل، والتي منها ارتباط القراءة بالمناهج الدراسية وتحويلها إلى مسؤولية كاملة على عاتق الأطفال. وبعد ذلك قدمت مشاعل سعود ورشة بعنوان "تدريب الكتابة بطرق ممتعة" تحدثت فيها عن قصة تفاعلية للأطفال موضحة بها الحروف المتشابهة، وكيفية التمييز بينها، مستخدمة الصلصال، الرمل، السبورة؛ لترتيب الكلمات وصياغة جمل مفيدة، واختتم اليوم الثاني بعرض مجموعة قصص مباشرة للأطفال من تقديم فايز منصور سعى من خلالها لمحاكاة اهتماماتهم، وتعزيز القيم الإنسانية فيهم.

وافتتحت رباب الحاجي اليوم الثالث بجلسة حوارية بعنوان "سحر القراءة الجهرية لأطفال الاحتياجات الخاصة" ذكرت فيها دور القراءة المذهل في مساعدة الأهالي، لتقديم ما هو أفضل لأطفالهم من ذوي الاحتياجات الخاصة، ومساعدتهم في تجاوز المصاعب في مسيرتهم التعليمية ونموهم العقلي والنفسي، تلتها ورشة بعنوان "كيف تروي قصتك"؟ من تقديم الحكواتي محمد عزام استخدم فيها تقنية مسرحية الحكاية، إلى جانب الوسائل الحديثة في عرض القصص بطريقة جذابة وملهمة للطفل، لتقدم الطفلة فاطمة البيك ورشة "وقت قراءة القصة" متضمنة ثلاث قصص ابتدأتها بقصتها "كوكب كتاب" ومن ثم قصة "لمن هذه البيضة"؟ بمسرح خيال الظل، وختمتها بعرض قصة "الغيمة لا تمطر ألعاباً"، واحتوت الورشة على نقاش وأسئلة تفاعلية.

وقدمت هناء حسنين في اليوم الرابع ورشة بعنوان "الكتابة في مواجهة الألعاب الإلكترونية" للتوعية بأهمية الكتاب في حياة الطفل، والتنبيه على أضرار الأجهزة الإلكترونية، كما طرحت الحلول والأفكار التي تساعد الأمهات في مواجهة ذلك، وقدّم محمد عزام ورشة "كيف تروي قصتك"؟ مستخدماً أسلوباً فنياً مشوقاً لجذب الأطفال، وتحفيزهم على التفاعل والاندماج في القصص. ثم ورشة بعنوان "وقت قراءة القصة" قدمتها لميرة السبيعي، تروي فيها قصة للأطفال بعنوان "كيف تلتقط نجمة"؟ وتفاعل الأطفال مع سؤال لو كانت لديك نجمة ماذا ستفعل بها؟ في محاولة لإعطاء الأطفال فرصة للتعبير. ثم قدم الطفل نواف العواد مجموعة من قصص للأطفال تتناسب مع أعمارهم تحتوي على المتعة والتسلية، وتشجعهم على الابتكار.

> ورشات للقراءة والحوارات الأدبية لتنمية إبداع الطفل في الرواية والقصة بمشاركة متخصصين في أدب الطفل

وبدأ اليوم الخامس بسؤال "كيف يمكن تنشئة طفل قارئ"؟ تحدثت حوله سامية العيسى عن تأسيس بيئة تجعل من القراءة والكتاب أولوية، مع مراعاة الخصائص النمائية للأطفال، وتكوين جسر بين الطفل والكتاب، ثم تلتها لميرة السبيعي بورشة "كيف أكتب قصتي؟" تحدثت عن كيفية التعرف على عناصر بناء القصة وآليات سرد الأحداث وتم تطبيق ذلك عبر نشاط تطبيقي اختتم بصعود الأطفال المسرح وقراءة قصصهم، لتسرد هناء حسنين قصة "الفيل ايلمر" في ورشة بعنوان "وقت قراءة القصة للأطفال من 6 إلى 8 سنوات" تحدثت خلالها عن التميز الموجود في داخل كل طفل.

وتضمن اليوم السادس من الفعاليات ورشة للكاتبة شوقية الأنصاري بعنوان "تهيئة البيئة المنزلية للقراءة" بهدف رفع سقف الوعي الأسري في استثمار البيئة المنزلية للقراءة، ووضع الخطط التشاركية لتنشئة طفل واعٍ ومجتمع قارئ، وفي ورشة بعنوان "عبرٌ عن نفسك بالفن" قدمتها آلاء الحاجي وشملت إرشاداً نفسياً بالفنون البصرية لتنمية مهارات التواصل والتعاطف، فيما قامت سامية العيسى بجلسة عصف ذهني، عن أهمية القراءة من خلال طرح مجموعة من الأسئلة المثيرة لتفكير الأطفال، ثم شاركت الطفلة حلا القاضي بمجموعة من قصص الأطفال التي تنمي حب الاستطلاع وتعزز القيم الأخلاقية والمعرفية.

وفي اليوم الختامي من "أسبوع الطفل" قدمت شوقية الأنصاري ورشة بعنوان "كيف أكتب بدهشة للأطفال؟" وضحت من خلالها كيفية صقل المهارات الأدبية للأسرة باستثمار مهارات التفكير المثيرة للدهشة، وتوظيفها في تحسين جودة الكتابة الإبداعية للطفل، تلتها آلاء الحاجي بورشة "عبر عن نفسك بالفن" مستخدمة الفن الترويحي، الذي يهدف إلى مساعدة الأطفال في تحقيق السلام، وأخيراً ورشة "وقت قراءة القصة" من تقديم محمد وآدم الخنيزي، ويوسف وعباس التاروتي.

تنشئة الطفل وتوعيته بأهمية القراءة